محاضرة رقم 03: محاضرة الإصلاح الديني المضاد

كانت البروتستانتية تسيطر على ¾ من أنحاء أوربا، وهو ما مثّل اكتساحًا من طرف المذهب الجديد للمذهب الكاثوليكي، فلجأت الكنيسة البابوية في روما إلى وسائل مشروعة ووسائل غير مشروعة؛ في سبيل إنهاض الكنيسة واسترجاع هيبتها وممتلكاتها. هذه الحركة أطلق عليها المؤرخون: **حركة الإصلاح الديني المضاد the counter reformation**. بينما اعتبرها العلماء والمفكّرون الكاثوليك **حركة دعم للكنيسة الكاثوليكية**، في حين تطلق عليها المصادر الإنجليزية **ردّ الفعل الكاثوليكي Roman Catholic Reaction**.

من الوسائل المشروعة التي اعتمدتها الكنيسة الكاثوليكية لتحقيق أهدافها السالفة الذكر؛ عقد المجمع المسكوني، وهو اجتماع كبير يتمّ تحت رعاية البابا والإمبراطور، ويكون في شكل سلسلة من المؤتمرات لتحديد وتعريف العقيدة الكاثوليكية، وتطوير نظم الكنيسة، والقضاء على المساوئ والمفاسد التي لوّثت سمعتها. وكذلك لإصلاح المنظّمات الدينية التابعة للكنيسة وإنشاء هيئات دينية جديدة لدعم نفوذ البابوية، والتمكين للمذهب الكاثوليكي عن طريق الوعظ والإرشاد والتعليم وكان على رأس هذه المؤسسات **جماعة اليسوعيين** أو **الجزويت**.

أما الوسائل غير المشروعة، والتي أنشأت بتواطؤ بين الكنيسة البابوية والسلطة السياسية (الإمبراطور والملوك)، فنذكر: **الفهرس** و **محاكم التفتيش**.

1- مجمع ترنت trent: يعتبر من مظاهر سياسة التراضي التي اتّبعتها البابوية بادئ الأمر إزاء الحركة اللوثرية، من خلال مهادنة البابا كلمنت السابع لهذه الحركة، وذلك بسبب العداوة الشديدة التي كانت بينه وبين الإمبراطور شارل الخامس. وبعد وفاة كلمنت السابع؛ خلفه البابا إسكندر فارنيس Farnese (بول الثالث)، واعتلائه كرسي البابوية؛ كان بمثابة إعلان عن نهاية عهد (بابوات النهضة)، وبداية عهد آخر تعاقب فيه عدد من البابوات، عكف معظمهم على إصلاح الكنيسة البابوية والدفاع عن الكاثوليكية، واستطاع هؤلاء البابوات نقل نشاطهم إلى أرض البروتستانت، واستعادة بعض من مواقع الكنيسة الكاثوليكية والتي كانت قد فقدتها سابقا.

مجمع ترنت؛ هو عبارة عن عدّة مؤتمرات عُقدت في مدينة ترنت trent الإيطالية، وكانت بدايتها في 13 ديسمبر 1545م. وقد تعرّض هذا المجمع المسكوني إلى أزمات عنيفة، أدّت إلى توقّف أعماله عدّة مرات، بلغت إحداها 10 سنوات. مما جعل هذا المجمع من المجامع الفريدة في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية، فقد استمر 18 عاما (من 13 ديسمبر 1545 إلى 04 ديسمبر 1563م)، وتنقسم قرارات مجمع ترنت إلى مجموعتين: مجموعة تختص بإصلاح نظام وكيان الكنيسة الكاثوليكية؛ ومجموعة تختص بتحديد العقيدة الكاثوليكية.

لقد خرجت البابوية من مجمع ترنت قويّة؛ فقد حدّد هذا المجمع تعاليمها ووطّد نظامها، وقضى على العديد من السلبيات التي استشرت في المجتمع الكنسي الكاثوليكي، كما فصل المجمع بين المذهبين الكاثوليكي والبروتستانتي، وقضى على كلّ محاولة للتقريب بينهما أو حسم الخلاف المذهبي القائم.

2- جماعة الجزويت Jesuits أو اليسوعيون: من دلائل انتعاش الكاثوليكية؛ نشاط الطوائف و الجماعات الدينية القديمة مثل: **الفرانسيسكان** و **والدومينكان**، ثم ظهور طوائف جديدة، كان لها الأثر البارز في المحافظة على كيان الكنيسة. من بينها **جماعة الجزويت** في اسبانيا التي نشأت على يد **دون أنيجو لوبيز دي ريكالدي Don Inigo Lopez De Recaldi**، والذي اشتهر تاريخيا باسم: **إجناتيوس ليولا Ignatius Loyola**.

لقد تنوّعت طرق الجزويت في محاربة البروتستانتية، وكان بعض رجالها يشتغل وتدخّل بالسياسة لخدمة البابوية، فكان منهم مستشارون ووزراء ذوو نفوذ. غير أنّ أكبر ميدان أصاب فيه الجزويت نجاحًا كبيرًا، كان ميدان التربية والتعليم، فقد كانت مدارسهم من أنجح المدارس في أوربا؛ إذ امتازت بإدارتها الحازمة ونظمها التعليمية الصارمة والدقيقة، وامتد تأثيرها إلى أمريكا بالتزامن مع حركة الكشوفات الجغرافية، وكان من أثر جهود الجزويت:

- انتعاش الكنيسة الكاثوليكية في أوربا.
- وقف امتداد تيار البروتستانت بدرجة كبيرة في كل من فرنسا وبولندا.
- القضاء على البروتستانتية في إيطاليا واسبانيا وجنوب أوربا عموما.

3- الفهرس (الكشّاف) (index catalogue): هو عبارة عن سجل يحتوي على أسماء الكتب والرسائل والمنشورات التي تعتبرها البابوية خروجًا على المذهب الكاثوليكي، و لم تكتف البابوية بتحريم تداولها بين الجماهير؛ بل عملت على إحراقها. وكانت من أهمّ التدابير التي اتّخذها المجمع المسكوني (ترنت)؛ منع تداول الكتب التي تتعارض مع المذهب الكاثوليكي، وقد أُطلق عليها مصطلح **الكتب المُهرطقة** (الكتب التي تحمل بين طيّاتها كفرًا وزندقة)، و لم يتّخذ المجمع قرارًا محددًا في الموضوع، لكنه أفصح عن رغبته في وضع فهرس يضم عناوين جميع المؤلفات التي تحرم قراءتها على الكاثوليك.

وفي أثناء الفترة التي توقفت فيها جلسات مجمع ترنت (10 سنوات)، وضع البابا بول الرابع سنة 1559م فهرسًا (كتالوج) بالكتب المحرّمة، وكان من ضمن المؤلفات التي أُدرجت فيه رسائل أشهر المصلحين: مارتن لوثر وزوينجلي وكالفن... وغيرهم. وقد انتقد مجمع ترنت هذا الفهرس واعتبره ناقصًا، وعلى هذا الأساس أعدّ فهرس جديد عام 1564م، وتكرّرت مراجعة هذا الفهرس مرّات عديدة.

4- محاكم التفتيش: لم تكن هذه المحاكم بدعة استحدثتها البابوية في القرن 16 الميلادي في كفاحها ضد المذهب الجديد؛ بل هي نظام قديم استخدمته في العصور الوسطى للقضاء على الحركات الدينية التي خرجت عن تعاليم كنيسة روما آنذاك، وفي بداية العصور الحديثة شهدت اسبانيا إعادة بعث هذه المحاكم للقضاء على اليهود، كما لقي المسلمون في الأندلس أقسى أصناف الاضطهاد على يدها بعد سقوط غرناطة.

ومحاكم التفتيش؛ من بين الوسائل غير المشروعة التي لجأت إليها كنيسة روما في خضمّ "حركة الإصلاح الديني المضاد"، فقد أصدر البابا 'بول الثالث' عام 1542م مرسومًا لإعادة إنشائها، بناءً على أنّ أشغال المجمع المسكوني، مقابل ازدياد موجة الهرطقة (انتشار المذهب البروتستانتي) يومًا بعد يوم، وقد اعتبرها البابا 'بول الرابع' أنجع وسيلة لاجتثاث المعارضين للكنيسة الكاثوليكية. و لتحقيق الغاية التي أنشأت من أجلها؛ تمّ تخويلها صلاحيات واسعة في تعقّب المخالفين للكاثوليكية والتنكيل بهم، بعد تعريضهم لأقسى أنواع التعذيب.

كان نجاح محاكم التفتيش هزيلاً؛ نظرًا لإجراءاتها الشاذة وأحكامها القاسية، وقد زادت من الضغائن والعداوة في نفوس البروتستانت تجاه الكنيسة البابوية، خاصة في شمال أوربا وغربها.

خلاصة:

1- كانت محاكم التفتيش سببا في إصرار البروتستانت على التمسّك بمذهبهم، وشكّلت فشلا ذريعًا للبابوية و وصمة عار في تاريخ الكنيسة المسيحية وتاريخ أوربا الحديث ككل. وكذلك الشأن بالنسبة لمؤلفات المصلحين البروتستانت، فقد مثّل إدراجها ضمن الكتب المهرطقة والممنوعة من التداول والقراءة؛ مثّل دعاية لها، وساهم في إقبال الناس على اقتنائها، وبالتالي انتشارها على نطاق واسع.

2- يمكننا القول أنّ قرارات مجمع ترنت (رغم سلبياته الكثيرة) وجهود جماعة الجزويت، هي التي أسهمت إلى حد بعيد في النجاح الذي حقّقته "حركة الإصلاح الديني المضاد" أو "حركة دعم الكنيسة" في نهاية القرن السادس عشر.